رأي القدس

استكمال حلقات خنق القدس المحتلة

■ لعله ليس من قبيل المصادفة ان تقرر الحكومة الاسرائيلية تحويل حاجز قلنديا، المدخل الرئيس الى القدس المحتلة، الى معبر دولي، وبوابة حدود نهائية، يوم انعقاد القمة العربية في الخرطوم، وهي القمة التي ستجدد قراراتها التزام الزعماء العرب بمبادرة السلام العربية التي تبنتها قمة بيروت قبل ثلاثة اعوام.

ايهود اولمرت رئيس وزراء اسرائيل بالنيابة اتخذ هذا القرار من اجل تعزيز حظوظ حزبه في الانتخابات الاسرائيلية البرلمانية التي ستجرى اليوم الثلاثاء، ولا يجادل احد في هذا، ولكنه قطعا اراد ان يرد باتخاذه مثل هذه الخطوة على ما تردد في اروقة القمة العربية عن وجود مشروع قرار يعارض الخطوات الاسرائيلية احادية الجانب التي يعتزم اتخاذها بعد فوز حزبه «كاديما» في الانتخابات وتشكيله حكومة ائتلافية بمشاركة بعض احزاب اليسار والوسط.

تحويل حاجز قلنديا الى معبر دولي هو تأكيد جديد على ضم السلطات الاسرائيلية للقدس المحتلة، وخنق سكانها، وجعلها عاصمة ابدية موحدة للدولة العبرية.

فبعد خلق حزام عازل من المستوطنات حول المدينة، يتكون بشكل اساس من مستوطنة آرييل ومعاليه ادوميم، واكمال بناء السور العنصري من ناحية ابو ديس، تكتمل عزلة المدينة المقدسة، وتصبح عملية زيارة مقدساتها عسيرة للغاية، ولن يكون مفاجئا اذا ما طلبت السلطات المشرفة على هذا المعبر من المواطنين العرب جوازات سفر، الى جانب التصاريح الخاصة التي تخولهم الحق بالمرور في الاتجاهين.

السلطات الاسرائيلية اقامت اكثر من 376 حاجزا في الضفة الغربية، تتحكم بمداخل القرى والمدن العربية، وتشكل رمزا للاذلال والاهانة لكل المارين عبرها. ومن المؤكد ان اي انسحابات اسرائيلية احادية الجانب ستكون انسحابات شكلية تجميلية، تعطي انطباعا كاذبا للعالم بان حكومة «كاديما» تختلف عن سابقاتها من حيث كونها اكثر ميلا للسلام.

وفي ظل هذه السياسات الاحادية الجانب التي تجد تأييدا من الناخبين الاسرائيليين، من الصعب توقع اي تجاوب حقيقي ملموس للنداء الذي وجهه امس الى الاسرائيليين السيد محمود عباس رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية يحثهم فيه على التصويت للسلام عندما يذهبون الى صناديق الاقتراع اليوم.

الحكومة الاسرائيلية التي ستشكل بعد الانتخابات برئاسة اولمرت لن تختلف عن الحكومة الحالية، بل من المتوقع ان تضم معظم الوزراء الحاليين، وتسير على النهج نفسه، اي انها سترفض الاعتراف بوجود شريك فلسطيني تتفاوض معه، مثلما فعلت مع حكومتي قريع وعباس السابقتين. وجاء فوز حركة «حماس» في الانتخابات التشريعية الفلسطينية ليسهل لها هذه المهمة.

السيد اسماعيل هنية رئيس الوزراء الفلسطيني المكلف حرص في خطابه الذي القاه امس امام المجلس التشريعي على تجنب اي اشارة للاعتراف باسرائيل والاتفاقات التي وقعتها منظمة التحرير معها، وخاصة اتفاق اوسلو، وهذا يعني ان السياسات الاسرائيلية المتطرفة احادية الجانب ستواجه بحكومة فلسطينية تتبنى سياسات احادية الجانب ايضا، قد يكون من بينها غض النظر عن حركات المقاومة وعملياتها الفدائية.

في ظل هذه الاجواء الملبدة بالغيوم يبدو الانفجار وشيكا، والمسألة مسألة وقت فقط.

قمة الخرطوم العربية والتحديات

د. محمد صالح المسفر

■ استاذنكم اصحاب الجلالة والسمو والفخامة قادة امتنا العربية حفظكم الله ورعاكم في ان اكتب اليكم رسالتي الثانية ،كانت الاولى في آذار (مارس) عام 2001م عندما جمع شملكم في عمان. اكتب اليكم فلعل ما اكتب يصلكم قبل دخولكم قاعة اجتماعات قمتكم في هذا اليوم المشرق على الخرطوم، تحرسكم عناية الله وعشرات الآلاف من الجند ـ مدججين بالسلاح الظاهر منهم والمتنكر ـ من خيرة ابناء الشعب السوداني الشقيق الصابر على ما اصابه من خلاف واختلاف بين قياداته ومفكريه من جهة، وبينكم وبين قياداته السياسية من جهة اخرى، حول قضايا تتعلق بالسودان وحريته في اختيار نظام حكمه والمحافظة على امنه ووحدة اراضية واستقلاله وسيادته.

اكتب اليكم يا سادتي رغم علمي ان زمن القراءة عندكم محدود وصبركم على التأمل فيما يكتب اليكم قليل وحولكم رجال لهم قدرة على اختصار او اختزال او اخفاء ما قد يكتب اليكم، ولكني رغم ذلك احاول ان اسمعكم رايا واحدا من مواطنيكم الذين نذروا انفسهم لخدمتكم وخدمة الوطن والدفاع عنكم عند عاديات الزمان عليكم، والخوف عليكم من اطماع الآخرين في ثروات امتكم والخوف عليكم ايضا من الابتزاز والتهديد المبطن والتآمر عليكم تحت عناوين شتى منها محاربة الارهاب والاصرار على الاصلاح بالطريقة التي تريدها امريكا والمطالبة بتطبيق قواعد حقوق الانسان وحرية الاديان في اوطانكم.

اصحاب الجلالة والسمو والفخامة قادة امتنا العربية استاذنكم في مصارحتكم بمطالب الشعب العربي من المحيط الى الخليج واعترف باني لست مكلفا من قبل شعبنا العربي بالكتابة اليكم او مخاطبتكم بالنيابة عنه لكن يقيني وايماني بان ما ساطرحه عليكم اليوم يمثل راي الغالبية العظمى في هذه الامة.

1ـ اطالبكم بدعم السلطة الوطنية الفلسطينية بقيادة حماس قولا وعملا والعمل على تذليل الصعاب في وجه هذه السلطة وكسر الحصار عنها والاندفاع نحو سداد عجوزها المالية الموروثة من السلطة السابقة، تلك العجوز التي نتجت عن فساد كان ينخر في جسد السلطة السابقة بقيادة حزب فتح. ان هذه السلطة الوطنية جاءت بكل الطرق الشرعية وبموجب تصويت اغلبية الشعب الفلسطيني. اطالبكم باتخاذ مواقف صادقة حاسمة في تنفيذ قراراتكم بشأن مساعدة الشعب الفلسطيني وتفعيل مبادراتكم التي كان اخرها ما تم اعتماده في قمة بيروت وثني عليها في قمة الجزائر، هذا الامر يعني ابلاغ الوكيل والمحرض الاول ـ الولايات المتحدة الامريكية ـ لاسرائيل بالكف عن سفك دماء الشعب الفلسطيني ومصادرة اراضيه وتدمير ممتلكاته، اطالبكم واناشدكم باسم الله عز وجل ثم باسم كل القيم الاسلامية والعربية ان لا تمارسوا ضغوطكم الفعالة على حكومة حماس المنتخبة لكي تعترف باسرائيل وكل ما فرخته اتفاقية اسلو الملعونة، ونطالبكم باسم الامة العربية كلها ان تستخدموا نفوذكم وقوتكم وقدراتكم واتصالاتكم بالعالم الآخر في الافراج عن المختطفين من سجن اريحا وعلى رأسهم الامين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين السيد احمد سعدات ورفاقه الستة واذا لم تتمكنوا من ذلك فلا نفع ولا بركة في اجتماعكم وانما خسائر واعراق للدولة المضيفة ولانفسكم .

2ـ اطالبكم باسم الله ثم باسم شرفاء الامة العربية ان تمدوا يد العون بكل معنى الكلمة الى المقاومة الوطنية العراقية الباسلة من اجل تحرير ارض العراق من الغزاة المعتدين وحماية علمائه وقياداته الوطنية واساتذته ومفكريه من الغدر بهم. ان مواقفكم من عدم نصرة الشعب العراقي ومقاومته الوطنية جعل اطراف اخرى تكون اكثر فاعلية واكثر نفيرا واقوى نفوذا في الشان العراقي، لقد اعطت الولايات المتحدة الامريكية ـ بصفتها الدولة المحتلة للعراق ـ شرعية للتدخلات الايرانية في الشان العراقي وطالبت ايران رسميا بالتفاوض معها في ذلك الشان وانتم من حول العراق تتفرجون واصبحت قواتكم حارسة لقوى الاحتلال من وراء الحدود عن دون قصد. ان قراركم بارسال بعثات دبلوماسية الى بغداد في هذه الظروف العصيبة يصب في صالح الغزاة والمعتدين والقوى الانفصالية في العراق ويعرضها لمخاطر لا حدود لها. ان تواجدكم المطلوب يكمن في دعم شرفاء العراق المحافظين على وحدته واستقلاله وسيادته.

اصحاب الفخامة والجلالة والسمو، السودان يتعرض لمحنة كبرى تستهدف تفكيكه وتجزئته والنيل من سيادته، السودان يحتاج الى موقف عربي يتمثل في تقديم دعم مالي فيما لا يزيد عن مليار دولار لتنمية مناطق السودان وخاصة منطقة «دار فور». لأن الحاجة هي اس البلاء، وارسال وحدات عسكرية تحت مظلة جامعة الدول العربية لتكن عونا لقوات الاتحاد الافريقي واتخاذ موقف واضح وجاد وصادق ضد تدويل مسألة دار فور السودانية، ان قراركم بحق السودان في الموافقة مسبقا على ارسال قوات دولية الى ولاية دار فور فيه شيء من السلبية والميوعة، ان صياغة قراركم يجب ان تكون «ان الزعماء العرب يرفضون ارسال اي قوات دولية الى السودان وسنقف مع السودان في مواجهة اي اجراء يخل بسيادته». ان عدم اتخاذكم خطوات عملية لمساعدة السودان والخروج به من محنته الى فضاء السلام والاستقرار والتنمية يفقدكم الهيبة ويشجع اطراف دولية ان تفتك باوطاننا دولة بعد اخرى بذرائع شتى، اذكركم بمواقفكم من الشأن العراقي منذ سنة 1991م حتى الآن وما آل اليه الوطن العربي وهذا الضياع وهذا الدم الذي يراق على تراب بلاد الرافدين شجع اطرافا اخرى للتدخل وزعزعة انظمة عربية اخرى اولها بعد العراق سورية الحبيبة ولبنان والحبل على الجرار.

يا للهول!! كارثة كبرى تلك التي ذكرها وزير خارجية دولة عربية كبيرة في الاجتماع الوزاري في الخرطوم حين قال: «ان القمة العربية لن تتخذ قرارات تضع العرب في مواجهة مع المنظمة الدولية» وذلك بمناسبة القول قد تعمد «امريكا» لاستخدام الفصل السابع من الميثاق بارسال قوات دولية الى السودان دون موافقة حكومته. اناشدكم باسم الله ان تخلصوا نواياكم وتسخروا مؤتمركم هذا من اجل خدمة امتنا العربية الاسلامية والمحافظة على كبرياء الامة لا من اجل ارضاء دول الاستكبار العالمية.

آخر القول تعالوا نردد جميعنا قول الحق:

«ألم يعلموا ان الله يعلم سرهم ونجواهم وان الله علام الغيوب» صدق الله العظيم (آية 78سورة التوبة).

قمة الخرطوم الثانية في عصر ما بعد ماستريخت

د. عبدالوهاب الافندي *

■ تعتبر قمة الخرطوم التي عقدت في العاصمة السودانية في آب (اغسطس) عام 1967 من القمم العربية القلائل التي اتخذت فيها قرارات ذات طابع حاسم. وقد تضاهيها في هذا قمة الرباط عام 1974، التي اتخذت قراراً باعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني، وقمة بغداد التي قررت مقاطعة مصر بعد كامب ديفيد ونقل مقر الجامعة العربية الى تونس، وقمة القاهرة الطارئة عام 1990 التي شرعت للتدخل الامريكي في الخليج. وفيما عدا ذلك كان انعقاد القمم مثل عدمه، لولا الضرر الذي كانت تسببه للعلاقات العربية المتدهورة اصلاً بسبب ما يحدث في هذه القمم من تراشق، وبسبب ان القمم نفسها تصبح مصدر خلاف، كما حدث في قمة تونس عام 2004 وغيرها.

القمم التي حدثت فيها قرارات مهمة كانت في مجملها تتعلق بالعلاقات العربية العربية، اما راباً لصدع كما حدث في الخرطوم والرباط، او تصعيداً لخلاف كما حدث في قمة بغداد. ولهذه القمم في مجملها طابع دفاعي، يتمثل في التمترس حول مواقف لتلافي او تقليل الضرر. وتجسد هذا التوجه في قمة الخرطوم بلاءاتها الثلاث (لا صلح، لاتفاوض ولا اعتراف) تجاه اسرائيل، حيث تحسبت لتحول الهزيمة الى واقع معترف به عبر الهرولة تجاه اسرائيل، وهو تخوف كان في محله كما كشفت الاحداث فيما بعد.

وقد نتجت النواحي الايجابية في قمة الخرطوم الاولى من تجاوز سلبيات كانت تسود العلاقات العربية، حيث مهدت ـ مؤقتاً على الاقل ـ لانهاء «الحرب الباردة العربية» (بحسب تعبير مالكولم كير)، وهي الصراع الذي ساد الستينات بين الجمهوريات الراديكالية بقيادة مصر من جهة، والدول المحافظة بقيادة السعودية من جهة اخرى، وكان التقارب بين هذه الدول والتمهيد لتهدئة احد ابرز بؤر الصراع بينها، وهي حرب اليمن، هي اكبر انجاز لقمة الخرطوم. ولكن هذا التقارب لم يستمر او يؤد الى استقرار في الاوضاع العربية. فلم يكد يمضي على القمة عامان حتى تم اسقاط الحكومة السودانية التي ساهمت في انجاز هذا التقارب واستبدالها بنظام راديكالي موال لمصر، ونفس الشيء حدث في ليبيا العام نفسه. وقد بدات عقب ذلك محاولات لانشاء جبهة راديكالية جديدة من مصر وليبيا والسودان وسورية (التي جاء انقلاب حافظ الاسد فيها في مطلع عام 1970 بنظام اقل راديكالية)، وهو ما اعتبرته الانظمة المحافظة تهديداً جديداً تزامن مع تهديد آخر من المد الرايكالي تمثل في الصدام بين منظمة التحرير الفلسطينية والحكومة الاردنية في نفس ذلك العام.

ولكن المد الراديكالي المتصاعد بعد هزيمة حزيران (يونيو) 1967 (وكان من مظاهره الاخرى صعود حزب البعث الى الحكم في العراق عام 1968 والحزب الاشتراكي في اليمن الجنوبي في نفس الفترة) ولد من جانبه صراعات داخل التيار، لم تكن في حد ذاتها جديدة، حيث شهد الانظمة الراديكالية في العراق وسورية ومصر صراعات داخلية وصراعات فيما بينها منذ الخمسينات، وقد ظلت هذه الصراعات تتصاعد وتؤدي الى فشل المشاريع الوحدوية التي كانت هذه الانظمة مغرمة بالاعلان عنها بين الحين والآخر. وقد تصاعدت هذه الصراعات وتعمقت وتشعبت عبر «الحرب الاهلية الباردة» بين جناحي حزب البعث في العراق وسورية، ومع وصول السادات الى الحكم في مصر. واذا كان التيار الراديكالي قد حاول ان يعيد الحياة الى لاءات الخرطوم في السبعينات عبر ما اطلق عليه «جبهة الصمود والتصدي»، فان التصدع المستمر في صفوف هذا التيار وصراعاته التي تجلت في الحروب الاهلية في اليمن ولبنان وغيرهما سبق انهيار المعسكر الاشتراكي الحليف الداعم في التعجيل بافوله واطلال زمان الهرولة.

وقد كانت هناك قبل ذلك اشارات الى ان لاءات الخرطوم كان يتم خرقها حتى قبل ان يجف حبر بيان القمة. وقد استمر الخرق بعد ذلك وتصاعد وخرج الى العلن حتى اخترعت له تسمية هي «الهرولة»، وهي تعبير آخر عن الخلل الكامن في الوضع العربي، وهو تصدع العلاقات العربية، وقبل ذلك الحرب الاهلية القائمة في كل بلد عربي بين الشعب وحكومته. الحكام العرب كانوا يحاربون بعضهم البعض في السابق بتهم الخيانة والتعاون مع اسرائيل، ويؤلبون شعوبهم عليهم، وهي لم تكن تحتاج الى تاليب اصلاً. اما الآن فان الحرب الاهلية الباردة تدار عبر توثيق العلاقات مع اسرائيل والجهر بذلك. وبعد ان كانت الخلافات العربية تصفى في السابق باتهام الانظمة امام شعوبها بالخيانة والعمالة، فان المعارك تدار اليوم، كما صرح وزير خارجية عربي في وقت سابق، بوشاية الانظمة ببعضها البعض عند امريكا بتهمة عدم الاخلاص في العمالة. وقد كشف هذا التطور عن خلل آخر وهو التهميش الكامل للجماهير العربية، حيث ان هذه الجماهير، وبخاصة في الدول التي طبعت علاقاتها مع اسرائيل، ترفض رفضاً كاملاً هذا التوجه.

هذا بدوره يفسر تصاعد المد الارهابي حيث ان الارهاب اصبح وسيلة التعبير الوحيدة عن المعارضة لهذا الاستلاب الكامل لحقوق الجماهير ليس فقط في تحديد من يحكمها، بل في التاثير على السياسات في اهم الامور التي يرتبط بها وجود هذه الشعوب. وبما انه لا توجد فرص معقولة للعمل السياسي الشرعي المعارض، ولا حتى للتظاهر ضد الهرولة والتطبيع والقواعد الاجنبية، فقد اصبح الشباب مخيرين بين القبول بالعبودية في اوطانهم او اللجوء الى العنف.

ويمكن مقارنة القمة العربية التي تنعقد في ظل هذه الحروب الاهلية المزدوجة (الحرب الاهلية في كل بلد بين النظام والشعب، والتصادم والتنافس بين الانظمة) بالقمة الاوروبية التي انعقدت هذا الاسبوع في العاصمة البلجيكية بروكسيل لمناقشة قضايا اقتصادية في الاغلب ابرزها امن الطاقة ومحاربة الاتجاه المتزايد في بعض الدول مثل فرنسا واسبانيا لمعارضة الاستيلاء على شركاتها من قبل شركات من دول اخرى في الاتحاد. فالقمة الاوروبية تنعقد في ظل تطورات مضطردة منذ قمة ماستريخت التي حولت السوق الاوروبية الى اتحاد، والاتفاقات اللاحقة حول توسيع السوق، والسماح بحرية الحركة الكاملة لمواطنيها وتعزيز حقوق المواطنين السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وعلى الرغم من الخلافات الظاهرة بين الدول حول اكثرمن ملف، الا ان هناك اطراً متفقا عليها للتعامل مع هذه الخلافات، كما ان هناك الاطمئنان على ان اي اتفاق تخرج به القمة يتم في اطار الحفاظ على مصالح مواطني الاتحاد وزيادة منعته وازدهاره.

صحيح ان دول الاتحاد وصلت الى ما وصلت اليه بعد حروب طاحنة فيما بينها، ومتاهات طويلة قطعتها، ولكن هذا لا ينفي ان بعض الانجازات، مثل الثورة الصناعية والديمقراطية وحقوق الانسان وحرية التجارة كلفت كثيراً ولم تتحقق الا بعد لاي، ولكنها بعد ان تحققت اصبحت ملكاً للجميع. فمن العبث ان يقال اليوم ان بناء المستشفيات الحديثة او الجامعات المتطورة يجب ان يستغرق اربعمئة سنة لان هذا هو الزمن الذي استغرقته في الدول الغربية. نفس الشيء يمكن ان يقال عن الديمقراطية واحترام كرامة المواطن الامر الذي لا يحتاج الى تخصص في علم الفلك لادراكه او مراعاته.

من هذا المنطلق فحين يسمع المرء وزير الخارجية العراقي يعلن على الملا من الخرطوم بين يدي القمة الحالية انه لا يريد للقوات الاجنبية ان تغادر لان هذا سيؤدي الى حرب اهلية فان هذا يعتبر اصدق تلخيص للحالة العربية. فالحاكم العربي هنا يتنصل تماماً من مسؤوليته كسياسي وقائد في التوفيق بين ابناء بلده ويؤكد ان القهر، سواء اكان اجنبياً ام محلياً هو السبيل الوحيد لحفظ السلام بين ابناء الوطن الواحد. وما لم يتم تجاوز هذه الحالة الى انهاء للحرب الاهلية المشتعلة في كل بلد حربي بين احتلال مباشر او بالواسطة فان الحديث عن وجود عربي، ناهيك عن تعاون عربي، يكون من باب الترف الفكري. ذلك ان الصدق في التعاون غير موجود الا فيما يتعلق بالتعاون في الحرب المستعرة ضد الشعوب، وهناك الكثير من المخادعة حتى في هذا الجانب. فبالمقارنة مع دول الاتحاد الاوروبي حيث الخلاف هو حول ما يصلح الجميع او ما تكون فائدته اكثر لشعب معين، فان الامر هنا لم يبلغ حتى البحث فيما يصلح الا القلة المهيمنة ومن يعينها على امرها.

ان الشكوى من هذا الوضع قد تكاثرت حتى لم يعد التصريح بطبيعة هذا الخلل مما يثير الدهشة ولا حتى الاستنكار ممن يعنيهم الامر. وعليه فان هذه القمة وغيرها لن تعني المواطن العربي في شيء ما لم يقم القادة قبل الاجتماع وخلاله وبعده بالاعتراف بنقطة بديهية: وهي انهم يتحملون المسؤولية في كون الوطن العربي اليوم احد اكثر بقاع العالم اصابة بالكوارث والهزائم والاخفاقات، واقلها احتراماً لكرامة الفرد والجماعة، واعجزها عن التصدي للتحديات التي تواجهه. وهذه المسؤولية لا تقتصر فقط بالتسبب في هذه الكوارث، بل تتعداها الى تعويق اي مجهود من الآخرين للمساهمة في الحل. مثل هذا الاعتراف لن يغير كثيراً في حد ذاته، ولكنه قد يكون نقطة بداية للتحرك الى الامام. فلتكن قمة الخرطوم الثانية على الاقل قمة الاعتراف بالتقصير. ولكن يجب الا يكون هذا الاعتراف على طراز ما حدث في القمة الاسلامية في الطائف في عام 1981، حين صدر عنها بيان يتحسر على سوء حال الامة الاسلامية وتدهور اوضاعها الذي ما زال يثير الكثير من الضحك عندي كلما استرجعت عباراته. ذلك انه كان يشبه بيانات المعارضة او الاتحادات الطلابية، لا بيان المسؤولين مسؤولية مباشرة عن هذا التدهور الذي يستنكرون. كما انه خلا من اي خطوات عملية ملموسة للتعامل مع هذه الازمة التي يتحسر عليها المتحسرون. ولهذا لعمري اكبر استخفاف بالمسؤولية يمكن تخيله.

الزعيم الليبي معمر القذافي (الذي اعلن ـ ويالعجب! ـ ان هناك لجنة وزارية تابعة للقمة مشغولة بدراسة افكاره النيرة التي جعلت ليبيا احد اكثر بلاد العالم تخلفاً واقلها احتفالاً بكرامة الانسان) قال مرة في اجابة حول العمليات الانتحارية ان الاوضاع التي يعيشها العرب اليوم تبرر لنا جميعاً ان نصبح انتحاريين. ونحن نؤمن بهذه الفكرة النيرة فعلاً من القائد الاممي ان كان يعني بضمير الجمع الحكام العرب، وان كنا ـ كما قلت في مناسبة سابقة ـ لا نطالبهم بالانتحار، علماً بانه يدخل السرور على قلوب غالبية رعاياهم، بل بالاستقالة والسماح للشعوب باختيار حكامها لاول مرة منذ ايام معاوية بن ابي سفيان. وسنكون في غاية الامتنان لهم، وسنسهل سفرهم الى سويسرا او اي مكان آخر كدسوا فيه اموالهم، كما سندعو الى عدم تعرض اي منهم للمحاكمة او المساءلة.

* كاتب وباحث سوداني مقيم في لندن

دروس وعبر وحكايات عن الزمن العراقي الجميل

هارون محمد *

■ عجيب أمور.. غريب قضية، مثل عراقي شعبي قديم منذ العهد العثماني، يردده العامة من الناس والمثقفون على حد سواء، عندما يواجهون حالة غير مألوفة وغريبة عليهم، وكان هذا المثل يلازم الفنان خليل شوقي في مسرحياته الدرامية وتمثيلياته الكوميدية في الزمن الجميل الذي مضى، أيام كانت الفنون والآداب والعلوم والمسارح والمهرجانات تعم العراق من اقصاه الى أدناه، قبل ان تداهمه جحافل الظلام والتخلف وتعصف به ثقافة اللطم على الصدور وتطبير الرؤوس، وتلوث أجواءه أنفاس الماريزن وغبار الهمفي والهمرات ودخان الاباتشي والبلاك هوك، ويحتل مدنه وقراه الهابطون من الجبال ومغارات الاحقاد، والوافدون من خلف الحدود يحملون الكراهية والغدر. هذا المثل يتداوله العراقيون هذه الايام بكثرة وهم يتابعون أخبار اللقاءات والمشاورات التي يجريها قادة الاحزاب والكتل السياسية حول تشكيل الحكومة الجديدة التي يبدو انها لن تعلن الا بعد ان يرفع المرشح لرئاستها ابراهيم الجعفري الراية البيضاء، ويمشي في آخر الصفوف ويصبح كالزوج المخدوع.. آخر من يعلم، وآخر من يتكلم، وآخر من يوقع، وحتى لا نظلم الرجل ونتجنى عليه، فهو قابل كما يبدو، بكل ما يفرض عليه، وموافق على كل ما يطلبه المنافسون منه، شرط ان تسبق اسمه او تعقبه عبارة من كلمتين (رئيس حكومة) ولله في خلقه شؤون.

وعندما يستعيد العراقيون أحداثاً وحكايات من تأريخهم المعاصر ويعيدون قراءة وقائع ووثائق تظهر كيف كانت رموزهم السياسية وشخصياتهم الوطنية والقومية والدينية في مواقفها وإيثارها وسموها عن الشخصنة وصغائر الامور وترفعها عن المناصب والامتيازات، لابد ان يصابون بالضيق والكآبة، وهم يشاهدون هذه الجماعات الجديدة على الحياة العراقية، في تسابق افرادها على الرئاسات والوزارات وتآمرهم على بعضهم البعض بطريقة تفتقر الى أبسط الاعراف والتقاليد، حتى يخيل لمن يراقبهم من بعيد، أنهم من طينة غير عراقية، لا تحكمهم ضوابط ولا يلزمهم تهذيب ولا خلقة ولا أخلاق.

ولأن العودة الى التأريخ العراقي بهذا الصدد ضرورية في مثل هذا الوقت بالذات، ليتعرف العراقيون قبل غيرهم على نماذج مشرقة من رجالاتهم الذين احترموا انفسهم ورفضوا ان يكونوا رؤوساء ووزراء وتجنبوا السقوط في الوجاهات الزائفة، نورد قصصاً موثقة بالأحداث والتواريخ يزخر بها السجل العراقي الحديث، ومنها كيف رفض المرحوم طه الهاشمي رئيس الوزراء عام 1941 تنفيذ رغبة الوصي على العرش عبدالاله بن علي باقالة قادة الجيش العراقي وزرع الفرقة بينهم وقتل حماسهم الوطني وغيرتهم القومية، فقدم استقالته بشجاعة وأباء، وعاد الى منزله راضياً مقتنعاً بما أقدم عليه، وكانت النتيجة ان هذه الاستقالة وما أحدثتها من دوي واصداء، أجبرت عبد الاله على الهرب من بغداد الى البصرة في حماية القوات البريطانية فيها، والقصة معروفة بتفاصيلها ونتائجها.

وما دمنا بصدد الجيش العراقي الباسل ومدى الاعتزاز والفخر به منذ بداياته الاولى، نعرض هنا حكاية المرحوم تحسين علي وزير الدفاع في منتصف عام 1944 عندما رفض باصرار تقريراً قدمه المفتش الانكليزي (رنتن) بتقليص الجيش وجعله فرقة واحدة تلبية لرغبة الوصي اياه، واستجابة لارادة السفارة البريطانية، ولما رأى الوزير ان رأيه لم يؤخذ به وهو المسؤول الاعلى عن الجيش قدم استقالته من الوزارة غير خائف ولا وجل.

وفي العهد الجمهوري ذهب ستة وزراء هم عبدالجبار الجومرد وزير الخارجية وفؤاد الركابي وزير الاعمار وناجي طالب وزير الشؤون الاجتماعية وصديق شنشل وزير الارشاد وجابر عمر وزير المعارف ومحمد صالح محمود وزير الصحة يقودهم الشيخ محمد مهدي كبة عضو مجلس السيادة الى رئيس الوزراء وقتئذ اللواء عبدالكريم قاسم وانتقدوا منهجه في الحكم ولما وجدوه مصراً على فرديته وعدم الأخذ بآرائهم قدموا استقالة جماعية وعادوا الى بيوتهم غير آبهين بالوساطات والاغراءات، وقد تضامن معهم الوزير الكردي الوحيد يومذاك بابا علي الشيخ محمود وقدم استقالته، ولما سئل الاخير ما علاقتك بهؤلاء القوميين العرب والناصريين وانت الكردي؟ رد على سائليه: أعرف انهم قوميون عرب وناصريون ولكنهم رجال مبادئ واصحاب غيرة.

وفي عهد عبدالكريم قاسم ايضاً عطل وزير الارشاد حسين جميل جريدة الحزب الشيوعي (اتحاد الشعب) لتطاولها على شخصيات وطنية وقومية مناضلة، غير ان رئيس الوزراء قاسم أمر بعودة الجريدة الى الصدور، فما كان من الوزير الا الاستقالة وترك الوزارة ولم يمض على تعيينه فيها غير يومين، مذكرا عبد الكريم انه حسين جميل السياسي والقانوني وليس باش كاتب.

وهناك قصص جميلة في التأريخ العراقي تبين كيف ان الاساتذة والعلماء يأنفون من تسلم الوزارات والمناصب العليا ويتمسكون بوظائفهم التربوية والتعليمية ومنها ان الدكتور عبدالعزيز الدوري المفكر الجليل والباحث والمؤرخ الكبير طلبه الرئيس الراحل عبدالسلام عارف عقب حركة 18 تشرين الثاني (نوفمبر) 1963 تلفونياً وعرض عليه منصب وزير المعارف، والدوري صديق شخصي للرئيس عارف وبينهما من الود والاحترام الشيء الكثير، واعتذر العالم الدوري وقال للرئيس مكاني الحقيقي في الجامعة، وتكرر الامر نفسه مع الاكاديمي والتربوي الدكتور عبدالعزيز البسام الذي أبلغ عبدالسلام: انا اعرف نفسي جيداً.. لا أصلح للوزارة يا سيادة الرئيس ولا أبدل وظيفتي في الجامعة بعشر وزارات، وربت الرئيس رحمه الله على كتفه وقال له بارك الله فيك.

وفي حزيران (يونيو) 1968 زار قائد الحرس الجمهوري المقدم ابراهيم الداوود ومعاون مدير الاستخبارات العسكرية المقدم عبدالرزاق النايف ،اللواء المتقاعد عبدالعزيز العقيلي وزير الدفاع الاسبق في بيته، وعرضا عليه ان يتولى رئاستي الجمهورية والحكومة في انقلاب استكملا سياقاته على الرئيس عبدالرحمن عارف، وكان العقيلي من معارضيه الاشداء، وعندما بدأ الثلاثة في بحث الإجراءات التي تعقب الانقلاب وكانت امكانيات نجاحه مؤكدة، رفض العقيلي المضي في المناقشات عندما وجد الاثنين يصران على تولي ابراهيم الداوود منصب وزير الدفاع وقال لهما عيب على العراق وعلى الجيش العراقي وكله كفاءات ورتب و(أوادم) ان يكون وزير الدفاع ضابط برتبة مقدم وهو مليء بالقادة والامرين والضباط اللامعين، وطرد الداوود والنايف، لاحظوا الرجولة والايثار، وأذكر أني قلت له بشيء من اللوم في قصر النهاية في صيف العام 1969، ما هذه المثالية يا سيادة اللواء، ماذا يضيرك لو قبلت بالاقتراح ويصبح الداوود وزيراً للدفاع وبعد ذلك تزيحه كما فعل قادة انقلاب 17 تموز (يوليو) 1968؟ فثار العقيلي رحمه الله وقال لي بحدة أمام المعتقلين وكانوا كثرة كاثرة، وماذا أقول لربي عندما يسألني يوم الحساب كيف سمحت لنفسك بان تعطي مكانا لشخص لا يستحقه، وماذا أقول للتاريخ والناس والاجيال عندما يعرفون انني رضيت بمنصب الرئيس وحكومتي فيها وزراء لا يصلحون لها وغير مؤهلين لاشغالها.. السجن والموت أحب الي من هذا العار، هذه هي مواصفات الرجال الرجال.

وفي عام 1974 استدعى الرئيس السابق احمد حسن البكر اللواء المتقاعد محمد مجيد الذي يعرف بانه من اكفأ القادة العسكريين ومشهود له بالنزاهة والضبط والشجاعة، وعرض عليه وزارة المواصلات وكانت في حينه من أكبر الوزارات بما تضمه من دوائر ومؤسسات وموظفين ومستخدمين وعمال، وقال له البكر هذه وزارة اتعبتنا وخير من يتولاها انت بما تملكه من سمات الضبط والحزم والنزاهة ولك مطلق الصلاحيات في ادارتها، وبعد ان انتهى الرئيس من كلامه، رد عليه محمد مجيد وكان في تلك الفترة يمر في ضائقة مالية وراتبه التقاعدي لايكفي لاعالة أسرته الكبيرة، ومحظور عليه العمل في اعمال حرة لاسباب سياسية، يا سيادة الرئيس انا جندي كما تعرف ولا اصلح ان اكون وزيراً لوزارة تتطلب شخصاً فنياً وخبيراً في شؤونها ومشاكلها، وامتعض الرئيس من كلامه وقال له: لديك في الوزارة حشد من الخبراء والاختصاصيين والمهندسين سيقدمون العون لك في مهمتك، ومرة اخرى يرد محمد مجيد، اذن اختاروا واحدا منهم، انا لا استطيع وخشيتي ان يظلم موظف او عامل فيها واتحمل مسؤوليته لانني لا أعرف دهاليز الوزارة واهتمامات المدراء العامين فيها وخلفياتهم وسلوكياتهم، اعفني من هذه المهمة. وعاد محمد مجيد من القصر الجمهوري الى منزله وتوضأ وراح يصلي لله جل وعلا شاكراً نعمته عليه بالتخلص من هذا العبء.. ومضى في حياته زاهداً ومتواضعاً وقانعاً.

ونختتم هذا الحديث عن التأريخ البهي لرجالات العراق الكبار، ما دام الصغار في بغداد يتعاركون هذه الايام على المناصب الرئاسية والوزارية وصلاحياتها ومنافعها، بحكاية اللواء محسن حسين الحبيب عندما استدعاه الرئيس عبدالرحمن عارف من موسكو حيث كان سفيراً فيها وكلفه برئاسة وتشكيل حكومة جديدة في العاشر من تموز (يوليو) 1968 تخلف حكومة الفريق طاهر يحيى التي استقالت في اليوم السابق.

وجاء الحبيب وبدأ مشاوراته مع الشخصيات السياسية وبعد يومين من الاتصالات والمباحثات ذهب الى الرئيس عارف وقال له: لقد فشلت في ضم وزراء أجد وجودهم ضرورياً في حكومتي، لذلك لا اقدر على تشكيل حكومة وفق ما أطمح اليه، آنا اسف واعتذر واشكر لك مبادرتك تجاهي. وحاول الرئيس عبدالرحمن اقناعه بتأليف حكومة من وزراء يقبلون الاشتراك فيها، ورد عليه الحبيب ولكني انا لا اقبل يا سيادة الرئيس الا بحكومة كفوءة وقادرة على تحمل مسؤولياتها، وعاد الرجل الى مقر عمله سفيراً في موسكو، عازفاً عن رئاسة الوزراء ومكانتها وامتيازاتها.

هذا هو العراق الحقيقي المضيء برجالاته الاوفياء، وهذا هو سجله الناصع الذي يحفل باحداث وحكايات تؤكد ان العراقيين مستعدون للبذل والتضحية دائماً من اجل بلدهم وشعبهم، وصحيح ان العراق مر بعهود سادت فيها الويلات والمحن والمآسي سواء من غزوات خارجية او احتلالات اجنبية او تصرفات حكومية، ولكن التأريخ يعلمنا بان العراق ظل صامداً وصابراً وفي كل مرة يخرج من الرماد والخراب، محلقاً ومتألقاً يخلف وراءه الصفحات السود ويبدأ في البناء والنهوض.

والى الذين يضعون انفسهم وطائفتهم ومصالحهم فوق كل اعتبار ويتدافعون بالمناكب والسواعد والفتنة والفرقة للاستحواذ على المناصب والرئاسات والوزارات والمقاولات، سيأتي يوم لاشك فيه، لا تنفعكم مواقعكم ولا تفيدكم أموالكم، ولن تحميكم المنطقة الخضراء وقصورها وحراساتها الامريكية والميلشياوية، ما دمتم تغفلون الع